تصحيح كتاب « البخلاء »

للدكتور داود الجلبي

قرأت باهتمام فى هذه المجلة فى أعدادها (٦٦٧ — ٦٦٩) المقالة التى عنى فيها (أستاذ عظيم) بنقد كتاب البخلاء للجاحظ طبعة وزارة المعارف بمصر . وسبب اهتمامى أنى حاولت قبلا تصحيح الكتاب المذكور المطبوع فى دمشق سنة ١٣٥٧ هـ باعتناء علماء من أبناء الشام ، ونشرت تصحيحى فى مجلة المجمع العلمى العربى بعنوان : (تصحيح أغلاط كتاب البخلاء) فى الجزء الأول والثانى المزدوج ، وفى أربعة أجزاء مزدوجة أخرى تليه من المجلد العشرين مع تصحيح واستدراك فى الجزء الاول والثانى المزدوج من المجلد الحادى والعشرين . فأردت أن أرى هل تنازل الأستاذ العظيم إلى مطالعة تصحيحى ، وما الذى جاء فى تصحيحى موافقاً لتصحيحه ، وما الذى خالفه . وبعد المطالعة ظهر لى أن الأستاذ لم يعلم بوجود تصحيحى ، ووجدته عظيما حقا فى انتقاده وآرائه الصائبة ، وعددت نفسى سعيداً لاتفاق التصحيحين فى الغالب . ولست فى صدد تعداد ما جاء موافقاً ، وما جاء مباينا أتركه لحكم من أراد الاطلاع والتتبع .

ولكن لا بد من ذكر بضع فقرات وردت فى كلام الأستاذ العظيم تحتمل النظر فيها ، فأقول :

جاء فى الرسالة فى عددها الـ ٦٦٩ ص ٤٧٥ كلمتا (الفرد) و (الجوهرى) وقال الأستاذ : إن الفرد أصلها (العرض) والجوهرى أصلها (الجوهر) . أما أنا فقد كنت صححت الفرد بالـ (قصَرة) سقطت منها الصاد وحرفت وهى ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال . وصححت الجوهرى بالـ (حوارى) وهو لب الدقيق الأبيض الخالص . وتصحيحى هذا ينطبق على القصة دون الالتجاء إلى المجاز أو الاستعارة أو التشبيه .

وفى الصفحة عينها استنكر الأستاذ كلمة اتفاق ، وأراد تصحيحها بأنفاط جمع نفط ، ولكن الكلام كان على الزيت والسمن ، أى على الأدهان المأكولة ، والنفط ليس منها . أراد الجاحظ بالاتفاق زيت الإتفاق ، وهو الزيت المعتصر من الزيتون الفج ، ويسمى بالزيت الركابى أيضا . جاء فى التاج فى مادة (فوق) : الاتفاق وهو الفض من الزيت . وجاء فيه فى مستدرك مادة (نفق) : وزيت أتفاق : غض . وجاء فى مادة (ركب) : ويقال زيت ركابى لأنه يحمل من الشام على ظهور

فى سبيل الاتجاه نحو مثال جديد ونحو حياة جديدة ، ومع أن السيدة جالبريت تعترف بأن الصين قد أفلحت فى تحقيق جانب كبير مما رسمته لنفسها إلا أنها مع ذلك تحتاط ولا تبالغ فى قيمة الإصلاحات التى تمت بالفعل حتى الآن . وهى ترى أن كثيرا من الوسائل والطرق التى تتبعها الصين وسائل عقيمة وطرق غير مجدية . يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الأعمال التى أنجزت بالفعل وقعت فى أيدى الأعداء فخربوها ، كما أن سكان المقاطعات الصينية التى وقعت تحت سطوة اليابانيين قد تدهوروا ورجعوا إلى حالة من الانحطاط لا تبشر بخير ؛ وذلك بتأثير ذل العبودية التى فرضها المنتصرون عليهم من ناحية ، وبتأثير الأفيون والمخدرات الفتاكة التى كان اليابانيون يوزعونها عليهم بسخاء من ناحية أخرى . فقيام الحرب اليابانية ولو أنه كان أهم الدوافع التى دفعت الصين إلى التقدم وإلى التطلع إلى حياة أفضل من حياتهم التى حيوها آلاف السنين إلا أن الحرب كانت هى أيضا العقبة الكؤود فى سبيل استكمال تلك الحياة والوصول إليها ... ولقد انتصرت الصين أخيرا على غزاتها ، ولكنها وقعت فى حرب أهلية لا يعرف بالضبط مدى تأثيرها وإن كان لا شك فى أن عاقبتها تكون وخيمة . ثم إن مستقبل الصين ليس فى يدها وحدها ، فهو لذلك لا يزال متقلقلا غير ثابت تتقاذفه كثير من التيارات ، ولكن الصين فى أحلك ساعاتها كانت تتمسك بأهداب الأمل وكانت تؤمن بنفسها وبمستقبلها ، ودفعها ذلك الإيمان إلى العمل وإلى الإصلاح وهى مشغولة بالحرب . ولعل ذلك الإيمان الراسخ يساعدها مرة أخرى على التغلب على ما تلاقيه فى طريقها من صعاب . لقد قال كونفشيوس حكيم الصين « إن شعبا يعيش بلا إيمان لا يمكن أن يعيش » .

أحمد أبو زيد

الإبل . اهـ . وقال ابن سينا فى الجزء الأول من القانون فى مادة (زيتون) : وقد يعتصر من الزيتون الفج الزيت ، وقد يعتصر من الزيتون المدرك . وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج . اهـ . وقال داود الانطاكى فى الجزء الأول من كتابه تذكرة أولى الألباب : (زيت) هو الدهن المعتصر من الزيتون ، فإن أخذ أول ما خضب بالسواد ودق ناعماً وكب على الماء الحار ومرس حتى يخرج فوق الماء فهو المفسول ؛ ويسمى زيت أنفاق . وإن عصر بعد نضج الثمرة وطبخ بالنار بعد طحنه وعصره بعاصير الزيت فهو الزيت العذب . اهـ . وفى بحر الجواهر لمحمد بن يوسف الطبيب الهروى (طبعة الهند على الحجر) : والزيت قد يعصر من الزيتون المدرك ، وزيت الانفاق هو المعتصر من الفج ، وإنما سمى به لأنه يتخذ للنفقة ، ويقال له الركابى أيضا لأنه كان يحمل على الركاب أى الإبل من الشام إلى العراق ، كذا قال بعض الفضلاء . وقال مولانا نفيس : نقل أبو ريحان فى الصيدنة عن ماسرجويه أن كل ثمر يكون غضاً نضيراً يقول له أهل الروم انفاقين ، والانفاق مشتق منه . اهـ . أقول إن قول ماسرجويه هو الصحيح ، فإن الكلمة معربة من Omphax اليونانية ، ويريدون به كل ثمر فج ، ومنه الحصرم . وجاء فى لاروس الكبير أن Omphacine مشتقة من امفاكس المذكورة وجاء فى قاموس ليتره الطبى ، فى مادة Huile قوله :

Huile omphacine, huile amère tirée des olives encore vertes وترجمته : زيت الانفاق زيت مر معتصر من الزيتون الذى لا يزال غضاً . اهـ .

أما زيت الماء فالمفهوم أنه المعتصر من الزيتون المدرك ، سمى به فى مقابلة الركابى ، لأنه كان يجلب إلى البصرة بالسفن نهراً .

وأما الأبيات الواردة فى ص ٤٧٦ من الرسالة وهى :

تهنا لثعلبة ابن قيس جفنة يأوى إليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستمار وخيمة سوداء عيب نسيجها لا يرقع
فكأنما فيها المذانب حلقة ودم الدلاء على دلوج ينزع

فكنت قد صححت (ودم) بـ (ودم) . وأرى الآن أن الأبيات تحتاج إلى تصحيحات أخرى كى يظهر لها معنى مقبول؛ ففى البيت الأول تستبدل (فينا) (بتهنا) و (خيمة) (بجفنة) وفى الثانى تستبدل (جونة) (بخيمة) و (سخامها) (بنسيجها) و(لا يرفع) بـ (لا يرقع) ، وفى الثالث (تنزع) (بينزع) ، و (ولوج) جمع ولاج وهو الولادى (بدلوج) ذلك أن الإنسان يبرد فى الشتاء فيحتاج إلى كن يقيه البرد وبخاصة إذا كان جائعا ، وهذا الكن فى البادية هو الخيمة لا الجفنة . قال الافوه الأودى هذه الأبيات مفاخراً . ولكن كيف يفخر الإنسان بخيمة سوداء لا ترقع خروقها . الصحيح أنها جونة . وأراد بالجونة القدر السوداء الطاهر ، لأنهم يفخرون بها لكونها دليلا على كثرة الطبخ بها . قال أحدهم يفخر بسواد قدره فى جملة أبيات :

بقدر كأن الليل سحمة قدرها ترى الفيل فيها طامياً لم يقطّع

أراد بالفيل الجمل الضخم . وبعد هذه التصحيحات تكون الأبيات هكذا :

فينا لثعلبة ابن قيس جونة يأوى اليها فى الشتاء الجوّع
ومذانب لا تستمار وجونة سوداء عيب سخامها لا يرفع
وكأنما فيها المذانب حلقة ودم الدلاء على ولوج تنزع

عبر عن سخام القدر بالعيب ، وهذا مدح فى معرض الذم ، كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وأما تصحيح الأستاذ العظيم كلمة العود بالفتح بالعَود بالضم فى البيت : الشرف العود فاكنافه ... الخ ، وقوله هو كناية عن ارتفاع قامته ماديا أو ارتفاع هامته معنويا ، فلا أدرى قامة من ، وهامة من قصد ، فى حين أن لا ذكر لرجل هناك . يجب تصحيح البيت هكذا : للشرف عوض الشرف ، واللام الأولى فى للشرف مفتوحة وهى للتأكيد ؛ والفرد عوض العود ؛ وجران عوض حران ، (كما فى طبعة دمشق) فالشرف هو الجبل ، والفرد وجران وينصوب (جمعه يناصيب) أسماء جبال فى البادية ذكرها ياقوت فى معجم البلدان . والشاعر يقول فى امرأة بدوية أنه إذا وجدت منماً وضيقاً من زيد بن أيوب (ولعله كان حضريا) يكون خيراً لها أن تعود إلى منازلها التى ألفتها عند الجبال المذكورة . . .

ولقد أصاب الأستاذ بتصحيحه كلمة (كسجر) بـ (كسحر) فى البيت ، ونار كسجر العود ... الخ . كما أنى بآرائه صائبة يشكر عليها فى مقالته .

(الموصل) الدكتور داود الجلبى